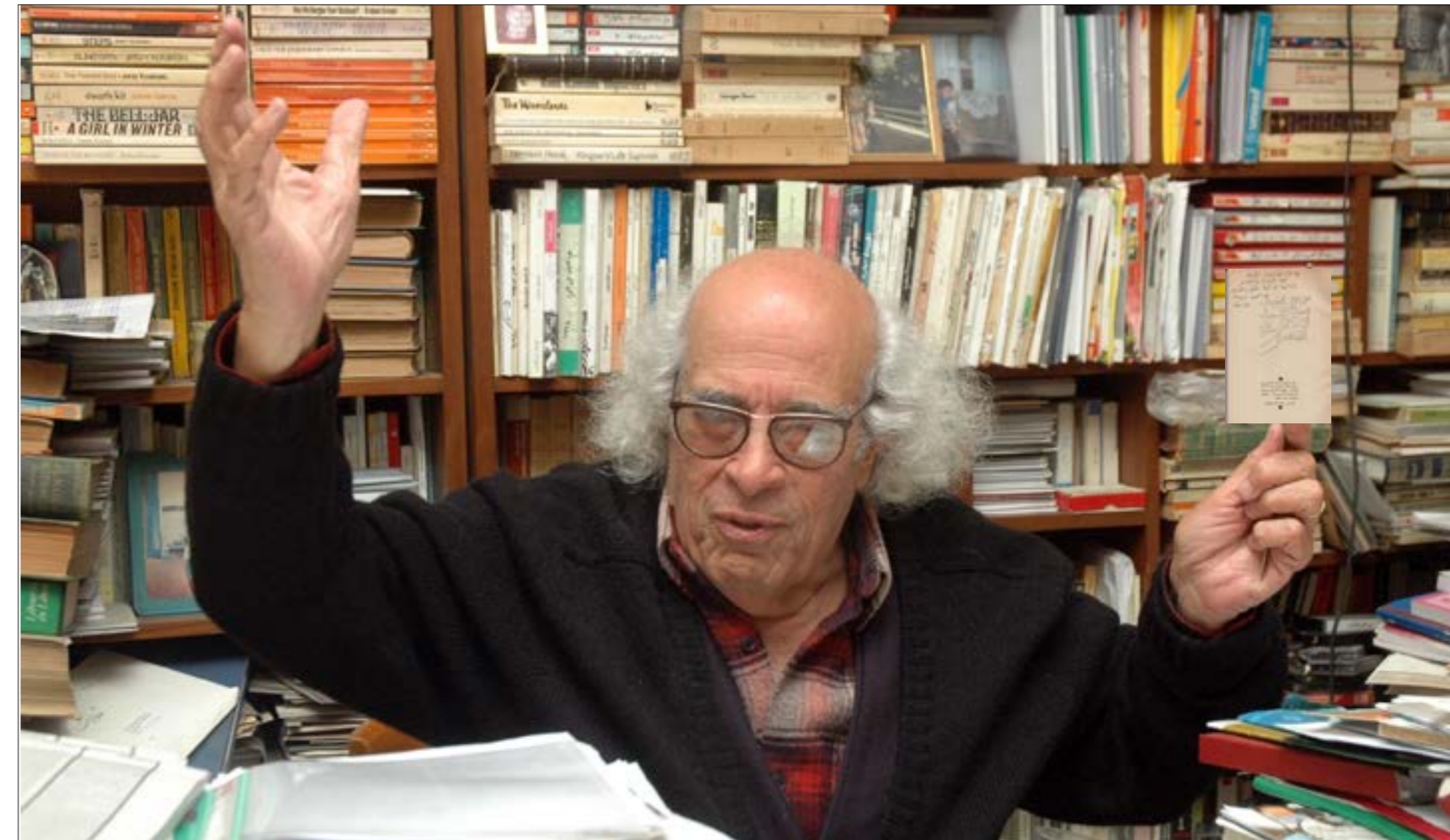


غرفة الكاتب

ابن المقفع المصري اختبر الحب والشهوة في نشيد الأنشاد

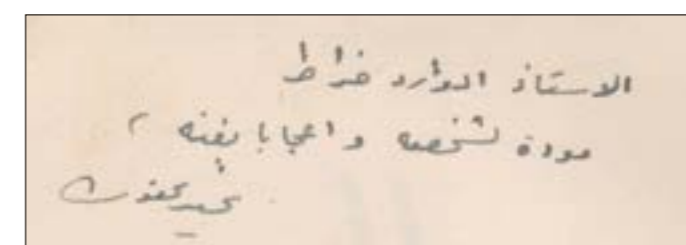
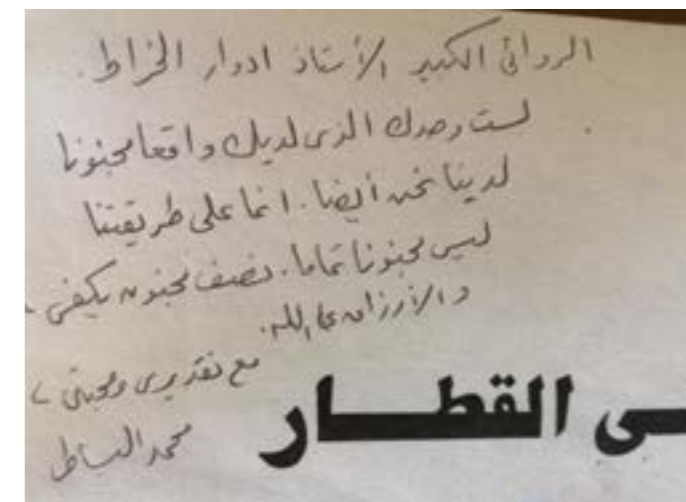
إدوار الخراط: حياة من كتب



القاهرة - محمد شمير

«احضر فوراً» رسالة تلغرافية تلقاها إدوار الخراط (1926 - 2015) من صديقه الكاتب المسرحي الفريد فرج، غيّرت مجرى حياته. جاء الخراط من الإسكندرية، منصف الخمسينيات تقريباً، ليتحقق مع صديقه مترجماً في السفارة الرومانية، ويسكن سوريا في شقة مشتركة في الدقي لسنوات، قبل أن يتمكن الخراط من استئجار شقة خاصة به، بمبلغ تسعة جنيهات الشهرية، وأخيراً سيجمع كتبه وأوراقه المعطرة بين بيت الأسرة، والشقة المشتركة، ويتزوج بعد قصة حب طويلة، «45 شارع أحمد حشمت - الزمالك»، صار عنواناً للخراط منذ عام 1958، وصار أيضاً مقصداً لمئات من المثقفين المصريين والعرب؛ خاصوا نقاشات صاخبة، وربما استعاروا كتباً من مكتبة الخراط التي تراضت على جدران الشقة.

تقع الشقة في الطابق الثاني، لن يستقبلنا الخراط بنفسه هذه المرة، كنا بصحبة ابنته الأكبر الطبيب إيهاب الخراط، نتجول في الغرف لمشاهدة المكتبة في غرفة المكتب، احتفظ الخراط بكل مخطوطات أعماله القصصية، والروائية، والنقدية، نشقها بعناية، نتطلع مسودات وبرقيات كل عمل على حدة، ومصادرهما سواء قصاصات الصحف التي استعان بها أثناء الكتابة أو حتى اللوحات التي طالعتها والكتب التي راجعها، كل شيء مؤرخ بدقة تبين مراحل العمل منذ كان مجرد فكرة، حتى وصوله إلى المطبعة، بالإضافة إلى ملفات بكل ما كتب عن العمل من أخبار صحافية أو دراسات نقدية أو حوارات أو شهادات شخصية.



يتذكر إيهاب ونحن نتجول في الشقة بعض ذكرياتهما المشتركة، أتركه يتحدث من دون أن أقاطعه: «كان يبدأ يومه بالموسيقى الكلاسيكية، ويقرأ بعد الظهيرة حتى الثانية صباحاً كل يوم»، ويضيف «كانتاه المفضلان عبدالقادر المازني، ويحيى حقي، كان يرى مغامراتهما لغوية، وأن كلاهما لم يحصل على حقه من معبنة، كان يطلب مني أن ابحت في القواميس، وعندما لا أجدها كان يقول لي معناها: كان يعرف جميع الكلمات التي لا توجد في القواميس». في غرفة النوم، احتفظ الخراط بصندوق آخر، لم يعرف الأبناء ما فيه، إلا بعد رحيل الأبوين.

»

بولي الخراط «الف ليلة وليلة» المتعددة، ونصوصها المختلفة رُفوها كاملة في المكتبة

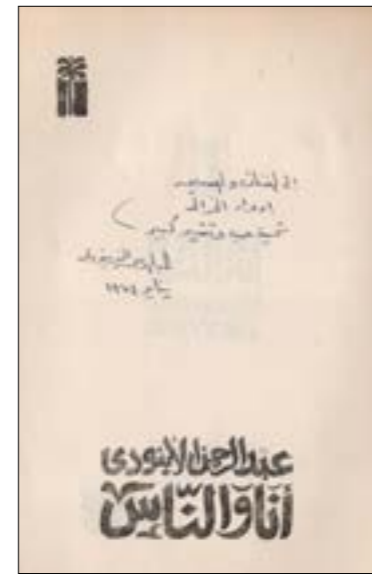
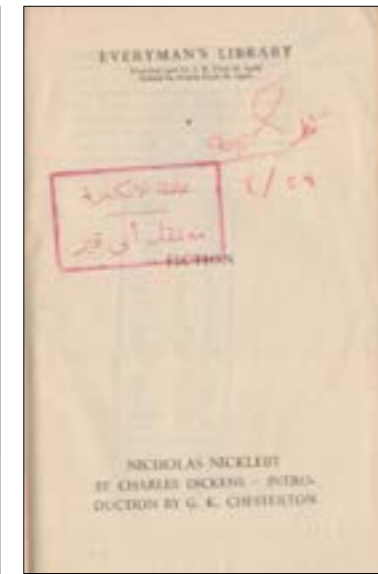
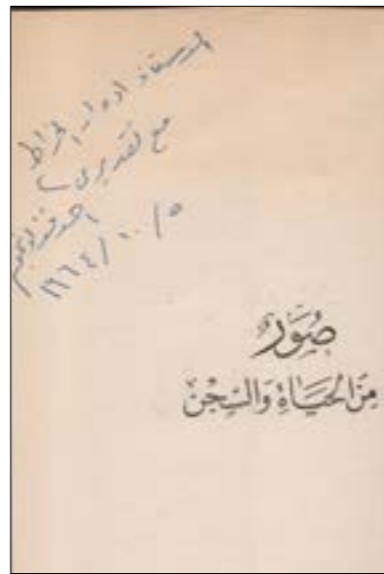
»

صندوق يضمّ الرسائل الغرامية التي تبادلها الخراط مع زوجته أيام الغرام، كانت جميعها بالفرنسية.

احتاج الأمر إلى زيارات متعددة، إذ يصعب الإحاطة الكاملة بما تضمه المكتبة، فالتكث لدى الخراط مثل الحب «مخاع خفيف وجوهري في الحياة» كما يقول ميخائيل مناجياً رامة في «رامة والنتين»، منذ بداياته، كان الخراط منذوراً للفن، بدأ القراءة في سن صغيرة، ولم تكن مجرد قراءة، بل «كان شرها»، حسب وصفه: «نوع من الشره الذي لا يشبع والعطش المستمر الذي لا يرتوي

كلمات

كلمات



أربعين رسالة بعثها إلى والدته، يحكي فيها أحواله، وفي كل رسالة لا يطلب شيئاً من الأسرة سوى الكتب، يكتب في واحدة من الرسائل: «الكتب: مهمة جداً وأرجو الاهتمام بها خصوصاً: رجاجة حبر «واثرمان» للقلم الحبر، نصف دسنة أقلام رصاص، نصف دسنة كراسات (100 صفحة)، مجموعة كتب من المكتبة ويمكن الاستعانة بأحد أصدقائي لاختيارها، وعلى الأخص الكتب التالية أو غيرها حسب الظروف: دوستوفسكي («ذكريات من منزل الموتى»، «رسائل من تحت الأرض»)، غوركي، «الأنفس الميتة» لغوغل، تورغينيف» (يكتب العناوين الكتب بالإنكليزية)، اهتمامه بالأدب الروسي يبدو واضحاً في تلك الرسائل، وتحديداً دوستوفسكي الذي «ترك عندي أثراً غائرة لدرجة الهلوسة الحقيقية»، كما يكتب في رسائله. وقد احتفظ الخراط في مكتبته ببعض كتب تلك المرحلة، التي لا يزال ختم السجن واضحاً على صفحاتها.

في مكتبته، نعث على عشرات الكراسات التي تبدو كأنها تدريبات على اللغة. في الصفحة الأولى لهذه الكراسات، يكتب ما يبدو شعراً دائماً له: «لا فن جيداً إلا صنعة جيدة»، ويكفي أن نقرأ عناوين الصفحات في الكراسات: عن الألوان، ساعات الليل والنهار، درجات البقاء المختلفة، العائمة الصحيحة، الريح والبرعد والسحاب والمطر، أنواع الأشجار والنباتات، درجات السرور، والحب والرحمة والشوق، مراحل العمر، النهوين والتقليل... وغيرها من موضوعات تكثف ثراء اللغة، والفروقات بين لفظ وآخر.

ما يبدو فوضي داخل مكتبة الخراط، هو النظام نفسه، حيث يخضع ترتيب المكتبة لاهتمامات الخراط. في مدخل الشقة، ركن كامل لسلاط الشعراء اللبنانيين، نصف شعراء العامية المصرية فحسب، أو ما كتب من دراسات عن العامية، بل يتسع لكتب السحر والتنجيم مثل «شمس المغارب الكبرى» أو «تذكرة العارفين»، داخل حجرة المكتبة، يضع الكتب التي يستخدمها دائماً أو يعود إليها باستمرار: الأدب الروسي تحديداً، ترجماته العربية والإنكليزية، أعمال طه حسين والقائد صاصر سنويًا عن مدرسة العباسية الشاذلية في محرم بك التي كان يدرس فيها الخراط. كتب الخراط في أعوام 1938 حتى 1940، وكانت معظم مقالاته عن تاريخ مدينة الإسكندرية، فنونها وأدبها، فضلاً عن موضوع آخر عن بشاعة الحروب وأضرارها. كانت حياة الخراط في تلك الفترة «حياة من كتب»، حتى أن زملاءه في المدرسة أطلقوا عليه تدراس اسم «ابن الملقع».

يحفظ الخراط في مكتبته بمراسلاته من السجن. أكثر من

خاصة لدى الخراط. مثلما حُض بورخيس «اللبيالي» برف كامل في مكتبته، كذلك فعل الخراط، حيث تحلّق «اللبيالي» بطبعاتها المتعددة، ونصوصها المختلفة رُفوها في المكتبة. «الف ليلة وليلة» هي كتاب العجائب والسحر لديه: «انضجنتي، منذ فجر البقاغة الأولى، وسحرتني وامتزجت بحلمي ودمي وكتابتي» كما قال في شهادة له.

هناك مئات الكتب المهداة للخراط وهي تبدأ باجبال سابقة عليه، وصولاً إلى الكتاب الشاب، وعلى الرغم من أن أعمال نجيب محفوظ تحلّق ركنًا كاملاً في مكتبته، إلا أننا لا نعثر إلا على كتاب واحد أهده محفوظ للخراط، وهو المجموعة القصصية «دنيا الله» (1963)، كتب إليه: «مودة لشخصه وإعجاباً بفنّه»، وقد جاء الإهداء تالياً لنشر الخراط دراسته الشهيرة «عالم نجيب محفوظ» في مجلة «المجلة»، ويكتب له الناقد المغربي عبد الفتاح كيليطو على كتابه «الغائب» مبدئياً «لإعجاب والمودة». تعذت رسائل كيليطو إلى الخراط، وفي

كتب مهداة من عبد الفتاح كيليطو وادونيس وبسام حجار واحمد فؤاد نجم واهل دنقل وعباس بيضون وبهاء طاهر

واحدة من تلك الرسائل، يختبئ له بحصوله على جائزة «نوبل»، «إنني على يقين، أن لك موعداً مع جائزة نوبل»، ويكتب أدونيس: «أخي إدوار: كانت الأيام التي أمضيتها في القاهرة - في صحيفتك المصنوعة فرحاً عامراً، لا أعرف كيف أفصح عنه، إنها أيام يتابع... أحبك معترًا بصدقائك، أما الشاعر اللبنانيين الراحل بسام حجار، فيصفه بـ«الكاتب بلغة الحياة»، ويطلق عليه عباس بيضون بـ «كبيرنا في الشعر وما بعد الشعر»، ويلهجه الساحرة يكتب محمد البساطي بمحبة: «لست وحدك الذي لديه واقع مجنون، لدينا نحن أيضاً. إنما على طريقنا لنطور العلاقة الإنسانية مجنون بكفي، والأوراق على الله، مع تكديري ومحبيتي»، ويصفه جمال الغيطاني بـ«الفنان الكبير»، ويكتب عبد الحكيم قاسم: «إليك كلماتي أضعها - متواضعا - إلى جوار كلماتك جسراً مشتاقاً إلى الحياة».

كثير من الإهداءات يمكن اعتبارها تروميتر لتطور العلاقة الإنسانية بين الخراط وبعض الكتاب، وهو ما تكشف عنه - على سبيل المثال - إهداءات الروائي يحيى الطاهر عبد الله، الذي يكتب على أول أعماله «الذي إنكرتني كثيراً، ومع ذلك سأظل أحبه كثيراً واحترمه كثيراً... وسبقني دوماً ملهمي للفعل»، ثم ابن عربي والحلاج والنفري، ولكن «الف ليلة وليلة» تحظى بعناية أو «النهر هادئاً، والنهار واضحاً»

وأخيراً «الصديق الذي أحبه كثيراً»، لم يكن يحيى يهدي الخراط أعماله فقط وإنما لأعمالاً أخرى، مثل كتاب «أغنيات أحمد عدوية» الذي كتب عليه: «إلى الفاضل إدوار الخراط شريكي في تقدير فن أحمد عدوية»، وقد قام الخراط بتجليد الكتاب ووضع في مكتبته ضمن قسم الفن والأدب الشعبي، أما الشاعر أمل دنقل، فهديه ديوانه «العهد الآتي»: «الفنان الكبير إدوار الخراط، أحبه بصدق وهو لا يصدق وأصدقته عندما يقول أنه يصدق. احترامي وتقديري».

تميزت علاقة الصداقة بين بهاء طاهر والخراط بالشباب، وخاصة أن الاثنين عملاً سورياً في «إذاعة البرنامج الثقافي» في القاهرة، حيث كان الخراط يترجم وكان بهاء يقوم بإخراج ترجمات الخراط للمسرحيات الشهيرة. يكتب بهاء على مجموعته القصصية الأولى «الخطوبة»: «إلى إدوار الخراط... صداقة عمر باقية»، وبعد أكثر من ثلاثين عاماً يهديه كتابه «في مديح الرواية» بالأداء نفسه تقريباً: «في صديق صداقة عمر باقية».

ويكتب إليه رؤوف مسعد: «إلى الكاتب الفنان الذي لولاه لأصبح ليل القاهرة أكثر وحشة، تحية إلى حيطانه العائلية، محاولة مني للتسلق إليها». أما الشاعر والفنان التشكيلي أحمد مرسى، فيصفه بصديق العمر ويهديه كتابه «صور من اليوم نيويورك»، هذا الكتاب انهزم علي كاسيل بعد قطرة. وكادت هذه القطرة هي القصدية الأولى (تفصيل... إلى إدوار) التي فجرت طاقة مخبوءة ومكتومة كتأية هذه القيائد، لكن باستعادة صوتي، الذي لم أفقده، ولكنني أراوغيه في انتظار هذه اللحظة من العمر». ويكتب محمد المخزنجي: «إلى رجل أظنه لا يشيخ، بل يزداد عافية، وحيوية مع السنين، وتتعلم آخر بالدرسة: «التي طالما تعلمنا فيها وتعلم: العناية، وعزة النفس».

الروائي المصري يوسف أبو رية يكتب: «المبدع الكبير إدوار الخراط أرجو أن أعي درسك كاملاً: الداب، وبذل العرق، والإيمان بالدفن في أحلك الأيام. كما أرجو أن أعيش بقلب الطفل ملك، قلب محب، حيوي، يفيض حياءً، وحنواً». فيما يهديه الشاعر والناقد محمد بدوي ديوانه «تلويحة النسيان»: «إلى إدوار الخراط تشاعريته، احساسيته، لديه العلميتين، وصره العديد». شعر العامية المصرية يحظى بركن كامل في مكتبة الخراط، وكثير من الدواوين مهداة من أصحابها، يكتب فؤاد حداد إلى الخراط: «تحية عبد الله، الذي يكتب على أول أعماله «الذي إنكرتني كثيراً، ومع ذلك سأظل أحبه كثيراً واحترمه كثيراً... وسبقني دوماً ملهمي للفعل»، ثم ابن عربي والحلاج والنفري، ولكن «الف ليلة وليلة» تحظى بعناية أو «النهر هادئاً، والنهار واضحاً»

